حزب الله في الحرب السوريَّة: المكاسب والخسائر والتحولات

الكاتب : شفيق شقير

التاريخ : 10 مايو 2016 م

المشاهدات : 6649

ملخص:

أعلن حزب الله، بعد تحفظه على الثورات العربية، عن مشاركته العسكرية في الحرب السورية إلى جانب الرئيس بشار الأسد تزامنًا مع حصاره لبلدة القصير السورية المحاذية للحدود اللبنانية في مايو/أيار 2013، وتعرَّض من حينها إلى اليوم لخسائر في الأرواح تربو على الألف بحسب أكثر الأعداد تحفظًا، وحقق، بحسب إعلامه، إنجازات في مواجهة من يسمِّيهم "بالتكفيريين" في عدة مناطق بسوريا، إلا أنه خسر موقعه كأحد حركات المقاومة وطنيًّا وعربيًّا ويغرق باطِّراد في حرب مذهبية ضد الأكثرية في الإقليم، ويبدو أن مساره هذا سيقوده إلى إعادة تعريف "الطائفة الشيعية" على أنها أقلية لبنانية مذهبية وليست جزءًا من الأكثرية المسلمة، كما انتهى إليه "اتفاق الطائف" الذي جعل السلطة مناصفة بين المسلمين (سُنَّة وشيعة) والمسيحيين.

إن حزب الله هو أحد أهم الفاعلين غير الرسميين في الحرب السورية، وهو جزء من المشكلة لاسيما عند الحديث عن المقاتلين الأجانب أو عن التدخل الإيراني في المنطقة، وأي حديث عن الحل أو عن سبيل تحقيق الاستقرار فيها أصبح يعتمد في بعضه على تراجع الحزب عن هذا المسار، إمَّا طوعًا أو كُرهًا.

ومن جهة أخرى، لا يمكن تجاهل أن حزب الله كان يُعد حزبًا "مقاومًا" من قِبل شريحة عربية واسعة وحظي بدعمها، لأنه خاض حروبًا عدَّة ضد إسرائيل وكان برنامجه الأساسي يقوم على "مقاومة المحتل والتوافق الداخلي" كأولوية قصوى وفق ما كان يعلن ويؤكد، ما يشي بأن تدخله في الحرب السورية جاء في لحظة مبكرة لتتقدم فيه الأولوية الإقليمية أي مصالح المحور الإيراني على ما سواها. وهذا لا ينفي أن هناك تطورات أخرى استدعت من المحور الذي يتبع له الحزب، اتخاذ إجراءات إقليمية للحفاظ على مصالح سياسية بعضها ـ صغر أو كبر ـ يتصل بالشأن اللبناني أو يمس بمسؤولية الحزب عن "طائفته الشيعية"، وبالتالي تستحق (بحسب رؤية الحزب ومحوره) أن يبذل لها في سوريا ما بذل حتى اللحظة.

إن هذا التشابك في أدوار الحزب والرهانات عليه تقود تلقائيًّا إلى الحديث عن المكاسب أو الخسائر التي يحصدها، وعن التحولات التي قد يتعرض لها جرَّاء هذا المسار، والتي ستترك بدورها آثارًا عميقة على دور الحزب وعلى مكانته مستقبلًا، سواء في بيئته المحلية اللبنانية، أو في البيئة الإقليمية والعربية الأوسع.

وإذا كان هذا التقرير يتناول هذه العناوين الأساسية الثلاثة المتصلة بحزب الله، المكاسب والخسائر والتحولات، فإنه ينبغي بداية التأكيد على أن موقف الحزب من الصراع السوري لم يأتِ منفصلًا أو بعيدًا عن موقفه من الثورات العربية، بل كان ذلك الموقف نقطةَ البداية التي مهَّدت لانخراطه العسكري هناك وبسرعة قياسية نسبيًّا، وبالتزامن مع إعادة هيكلة واسعة لخطابه الديني ولتوجهاته السياسية.

حزب الله والثورات العربية:

التزم حزب الله عام 2011 بمراقبة الثورات العربية وتقييمها واحتفظ بمسافة تفصله عنها، ولم تخرج مواقفه تجاهها عن الخيارات التقليدية التي يعتمدها، ثم قرر مع تطور الأحداث أن شعاراتها وأهدافها المطلبية يمكن تفهمُها لكنها ليست هي المحك والغاية النهائية التي يجب اعتبارها، بحسب تقديره للموقف من "الثورة"؛ إذ يميز بين الثورات ومساراتها على مستويين:

الأول: ويعتمد فيه التمييز بين الدول التي شهدت "حراكًا ثوريًّا" أو ما تُسمى دول "الربيع العربي": فهناك دول تابعة لأميركا، وهي "النظام" المصري والتونسي واليمني والبحريني إضافة إلى الليبي "في آخر أيامه" بحسب وصف أمين حزب الله حسن نصر الله، وهناك أخرى وهي "النظام السوري" حصرًا الذي ينتمي لمحور المقاومة، وأنه الوحيد من بينها الذي يصحُّ "وصفه بأنه غير خاضع للنظام الأميركي"، وهو من دول الطوق "المواجهة لإسرائيل"، والمستهدَف من هذه الأخيرة لتحالفه مع إيران رأس "محور الممانعة"(1).

أمَّا على المستوى الثاني، فاعتمد التمييز بين مراحل الثورة، ورأى أن ما يجري في العالم العربي هو "حراك وطني حقيقي في كل بلد" ويعبِّر عن إرادة "شعبية وطنية ولم يكن مشروعًا أميركيًّا"، ولكنَّ أميركا "ركبت الموجة، وأظهرت دعمها لمطالب الناس تمهيدًا لحرف الثورة عن مسارها الطبيعي"، وكذلك بهدف تحسين صورتها وتخفيف خسائرها هناك، وليكون لها يد وشراكة في صياغة تلك الأنظمة على الأقل إذا لم تكن لها بالكامل(2).

اختلف حزب الله في المستوى الأول مع شريحة كبيرة من "جمهور المقاومة" عربيًّا، أي الجمهور المؤيد والداعم لمقاومة إسرائيل، فغالب هذا الجمهور لم يفرِّق بين أي من دول الربيع العربي وأنظمتها، بل أخذ تعاطفه وتأييده للثورة السورية على وجه الخصوص يتعاظم ويشتد كلما ازداد القمع والقتل(3). في حين اكتفت إيران من حليفها السوري الرئيس بشار الأسد بإصلاحات شكلية أو محدودة، ارتكزت عليها إعلاميًّا وسياسيًّا للقول بأن تحقيق التغيير جارٍ تحت سقف النظام، حتى إن أمين عام حزب الله، حسن نصر الله، اعتبر في مقارنة "أذكت التحليل الطائفي" أن ما يجري في البحرين من قِبل النظام هو أشد مما يجري في سوريا(4).

أمَّا بالنسبة للمستوى الثاني من التحليل، فحزب الله لم يختلف مع عموم "جمهور المقاومة"، بل إن هذا التحذير من الدور الأميركي صدر عن ناشطين في الثورة ومثقفين مؤيدين لها، حتى إن تنظيم القاعدة نفسه حذَّر في وقت مبكر بعد اندلاع الثورات من "الالتفاف الأميركي" عليها، ويمكن القول: إنه كان تحليلًا شائعًا حينها(5)؛ فحزب الله بهذا المعنى هو مستهلك لهذا التحليل أو اعتمده ثم أعاد توجيهه وقرر أن "حرف الثورة عن مسارها الطبيعي" ليس بالحؤول دون تحقيق مطالب "الثورة" في التغيير فقط، بل أيضًا في وصولها إلى "النظام السوري".

وأقرَّ حزب الله بأن "الشعوب متعاطفة ومتضامنة"(6) مع "الثورة" إلا أن هذا لا يمنع أنها، أي الثورات، جاءت في سياق مشروع "التقسيم الأميركي-الإسرائيلي" للمنطقة، وبحسب تعبير نصر الله هو "الشرق الأوسط الجديد الذي دمَّرنا طلائعه في حرب يوليو/تموز 2006، ودمَّر إخوانُنا في غزة طلائعه في حرب 2008 لكنه يعود بثياب جديدة وعناوين جديدة"(7).

انخراطه في سوريا:

لم يتأخر حزب الله عسكريًّا في الانخراط في الحرب السورية لكن إعلانه عن ذلك جاء متدرجًا، كما أن مبررات تدخله العسكري وحجمه جاءت كذلك، بدأها تحت عنوان "حماية القرى اللبنانية" الحدودية مع سوريا، ثم حماية "المقامات المقدسة" لدى الشيعة، انتهاء بالإعلان الواضح في معركة القصير (19 مايو/أيار 2013) عن الانحياز الكامل للنظام السوري. لكنه أرفق ذلك أو ربما سبقه، بتحذير الشعب السوري من الوقوع في فخ "إسقاط النظام السوري الممانع" والتأكيد على ضرورة حماية "منجزات المقاومة" هناك، وأطلق الحزب ما يشبه حملة إعلامية و"فكرية" كثُر فيها ظهور أمين عام حزب الله على الجمهور ليؤكد أن المحور الإيراني لديه رؤية واضحة وثقة كاملة ويدرك ما يفعله في المنطقة وسوريا(8).

وبالنظر إلى تعزيز نفوذه وبتسارع شديد بعد العام 2011 في الساحة اللبنانية، يمكن القول: إن حزب الله قد عمل منذ بداية الثورة السورية على التهيئة والاستعداد لاحتمال التدخل العسكري في سوريا؛ فقد سهَّل تشكيل حكومة نجيب ميقاتي (16 يونيو/حزيران 2011)، وهي الحكومة التي اتُّهمت من قبل خصومها بهيمنة الحزب عليها ليُحكِم قبضته على أجهزة السلطة اللبنانية خاصة تلك المعنية بالحدود مع سوريا، والمفارقة أن رئيسها ميقاتي استقال بسبب استفحال خلافاته مع الحزب، في مارس/آذار 2013، ليعلن الحزب، في مايو/أيار 2013، عن أول هجوم عسكري عبر الحدود اللبنانية واحتلال بلدة القصير السورية المحاذية(9). واستفاد حزب الله بالتوازي من شغور منصب الرئاسة اللبنانية (انتهت ولاية الرئيس ميشال سليمان، في 25 مايو/أيار 2014) ومن تحالفه مع التيار الوطني الحر الذي يتزعمه الجنرال ميشال عون ويحمل رئيسه جبران باسيل حقيبة وزارة الخارجية في الحكومة الحالية (حكومة رئيس الوزراء تمام سلام) ليمد نفوذه إلى عمق الدبلوماسية اللبنانية التي اصطدمت مؤخرًا مع المملكة العربية السعودية(10).

وبغضِّ النظر عن الأسباب التي تذرَّع بها حزب الله للتدخل في الشأن السوري، فقد بات جزءًا من تحالف كبير يضم سوريا وإيران والعراق ويعتمد دوليًّا على روسيا، ويخوض حربًا في سوريا ستترك تأثيرات كبيرة على بنيته التنظيمية وموقعه الاستراتيجي في المنطقة ومنظومته الأخلاقية، وذلك تبعًا للمكاسب التي قد يجنيها من هذه الحرب أو الهزائم التي تحل به.

أهم مكاسب حزب الله:

إن تتبع خطاب حزب الله حول "المكاسب التي حققها" لن يعطي الصورة الحقيقية عن حجمها أو أهميتها الفعلية بالنسبة له، لأنه لا يملك القدرة على حصد أي انتصار عسكري قد يتحقق له في الأراضي السورية بنفسه، فهو ببساطة حزب محلي يقوم بدور إقليمي أكبر منه، ويحتاج إلى رعاية دولة فاعلة إقليميًّا ليحقق أهدافه سواء المحلية أو الإقليمية، وبالطبع لن يكون لبنان هذه الدولة حتى ولو امتلكها الحزب، لأنها تكاد تكون دولة فاشلة غير قادرة على إدارة شؤونها. والواقع أن حزب الله بالمعنى الاستراتيجي ينتمي إلى المحور الإيراني، لهذا يصح القول بأنه مدفوع إلى هذه الحرب "بدوافع جيوسياسية ذات طابع طائفي"(11)، وفي هذا السياق بالذات فإن أهم مكاسب الحزب لابد أن تقاس من خلال الأرباح التي يحققها المحور الذي ينتمي إليه.

وبهذا الاعتبار يمكن إيجاز أهمها في النقاط الآتية:

1. استمرار الوجود الإيراني الفاعل في سوريا، لا بل إن شرعيته الواقعية تتعمَّق في مواجهة ما يُطلِق عليهم اسم "التكفيريين" و"الإرهابيين" ويقصد بذلك حتى اللحظة، وإلى حدٍّ ما، كلَّ فصائل المعارضة السورية المناوئة لحكم بشار الأسد؛ وهذا يعني تمدد النفوذ الإيراني لتصبح طهران مجاورة للبنان، وظهيرًا حقيقيًّا لحزب الله، باعتبار أن الخبراء والنخبة العسكرية الإيرانية بمتناول اليد وبأعداد لا يمكن للبنان أن يتحملها، في حين يسمح الظرف السوري والإقليمي وربما الدولي بمضاعفتها ولو إلى

حين.

2. الاطمئنان إلى التواصل الجغرافي ولو بصعوبة، ما بين إيران ولبنان حيث دولة المركز لحزب الله، عبر العراق وسوريا، بعد خلق مساحات خالية من الديمغرافية السورية مع حدود لبنان خاصة تلك المحاذية لبيئته الطائفية، وهو ما يجعل الحزب واثقًا وآمنًا في مواجهته لكل محاولات "الاستئصال أو الحدِّ من النفوذ التي قد يتعرض لها". وستُبنى على هذا الخط مصالح اقتصادية وثقافية ودينية وسياسية لصالح ازدهاره الأيديولوجي، وأهمها على الإطلاق أنها تضمن استمرار يده العليا لبنانيًّا كحزب مهيمِن ونافذ على كل الصعد وبدعم مطلق من طائفته.

3. تكريس دوره لبنانيًّا كمدافع عن حدود لبنان سواء في مواجهة "إسرائيل" أو مع "الجماعات المسلحة" السورية، وبسبب مواجهته لهذه الأخيرة حظي دوره باعتراف دولي ضمني خاصة من أميركا كأحد الأعمدة في مواجهة تمدد "الإرهاب" القادم من سوريا إلى لبنان.

وساعده على تحقيق ذلك مسألتان:

الأولى: الحرص الدولي على حماية لبنان من تداعيات الأزمة السورية، لأنها ترى فيه الملاذ الأخير للأقليات المسيحية وغير المسيحية في الشرق. لذا، قد تكون هذه الدول تغاضت عن التدخل العسكري لحزب الله في سوريا، ربما لعدم استطاعتها منعه خاصة في البداية، لكن بالمقابل كانت حاسمة في عدم السماح لأي انعكاسات للأزمة السورية بالتأثير على الوضع اللبناني، خاصة في ما يتعلق بالشأن الأمني، وهو ما لا يزال قائمًا حتى اللحظة(12).

أمَّا الثانية، فهي ظهور "تنظيم الدولة الإسلامية" و"جبهة النصرة" في سوريا خاصة على الحدود مع لبنان، بوصفهما تنظيمين مصنَّفين متطرفيْن دوليًّا، فضلًا عمَّا طال لبنانَ من تفجيرات قامت بها مجموعات سورية مناوئة للحزب(13)، ليصبح بالنسبة للقوى الدولية القبول بدور الحزب في حماية الحدود مع سوريا ولو مرغمين لا غنى عنه ما لم يتغير المشهد القائم راهنًا.

4. قد يكون هناك مكاسب متوقعة لحزب الله وترتبط بالتسوية المقبلة في سوريا وهي الأهم، ومبنية على تجربة الخروج من الحرب الأهلية اللبنانية واتفاق الطائف، ومفادها أن احتفاظ الحزب بقوته العسكرية وتحقيق الاستقرار على الوجه الذي تريده الدول الكبرى كي يكون بمنأى عن "المنظمات المتطرفة (السنية)"، سيجعل لحزب الله نصيبًا لصالحه من أي اتفاق قادم في سوريا فضلًا عمَّا سيتأتَّى عنه من انعكاسات تعزِّز من تجذره في السلطة اللبنانية. والجدير بالذكر أن الحزب على لسان نصر الله دعا أكثر من مرة لمؤتمر تأسيسي جديد ينسخ الطائف أو يصوِّبه، حتى اتهمه خصومه بأنه يسعى إلى "المثالثة"(14) ليكون تقسيم السلطة: سُنَّة وشيعة ومسيحيين، بدلًا من "اتفاق الطائف" الذي جعلها مناصفة بين المسلمين والمسيحيين على الإجمال، وبهذا يكون قتاله في سوريا في حقيقته قتالًا من أجل تعزيز وجوده طائفيًّا، ووجود جمهوره ومحوره وحلفائه في دولة لبنان سياسيًّا.

أهم خسائر الحزب:

إذا كان حساب الأرباح لا يمكن قياسه إلا باستدعاء المحور الذي ينتمي إليه حزب الله، فإن حساب الخسائر يكاد لا يخفى سواء في بِنية حزب الله أو في قيمه وما يمكن أن ينتج عن تدخله في الشأن السوري.

1. إن عدد مقاتلي حزب الله بالجملة، خاصة أولئك الذين يعتمد عليهم، يُحصى بالآلاف، وأي خسارة في هؤلاء هي خسارة كبرى، خاصة وأن الحرب السورية هي جبهة مفتوحة الأجل، وليست كتلك التي كانت تُخاض ضد إسرائيل؛ حيث للمعارك

فيها بداية ونهاية، خاصة منذ ما بعد تحرير جنوب لبنان عام 2000. وبالطبع بحسب أكثر الإحصاءات تحفظًا زاد عدد قتلى حزب الله في سوريا على الألف؛ هذا فضلًا عن الجرحى والمعوقين(15)، وكلما امتد الخط الزمني للحرب فإن مؤشر قدرة حزب الله على الاستمرار فيها يتراجع، لأن ما تتطلبه الحرب السورية من مقاتلين وحجم نيران يفوق أحيانًا قدرات دول كبرى، فكيف بحزب محدود العدد كحزب الله! وليتفادى ـ ما استطاع ـ هذا المصير، يعتمد الحزب استراتيجية "النِّسبة والتناسب"(16)، وتقوم على اختيار أهم المناطق السورية بالنسبة للحزب والارتكاز فيها، لتحقيق أو حماية مصالح استراتيجية وبأعداد مناسبة للسيطرة عليها أو الثبات فيها وبخسائر يمكن احتمالها، إضافة إلى مشاركته بخبراء ونخب في القيادة والتوجيه لبعض المعارك التي يعتقد الحزب أنه يُحسنها.

2. إن أي إعادة قراءة لكل المكاسب التي قد تتحقق لحزب الله في سوريا توضح أنها لا تتلاءم مع الكُلفة التي يدفعها راهنًا وتلك التي سيدفعها مستقبلًا، فحجم الأغلبية السورية التي يخوض حربه على أرضها لن تفنى لا بالقتل ولا بالتهجير سواء كان يستهدف ذلك أم أن هذا ما أصابها نتيجة الحرب، ولا شيء يضمن استمرار تأييد بعضها له، لاسيما تلك التي لا تزال على تأييدها للرئيس الأسد وهي الأقل. كما أن أولئك الذين يعارضون الأسد هم في نهاية المطاف خصم استراتيجي ولأمد بعيد ضد حزب الله كما ضد سواه من الميليشيات خاصة تلك الأجنبية التي اقترفت ما اقترفته في حرب لا مبرر لها في دخولها أصلًا، وهو إرث كبير لن ينتهي حتى بزوال نظام الأسد، وسيعاني منه حزب الله وحلفاؤه لأمد طويل.

3. بخلاف ما كان عليه الوضع في مواجهة إسرائيل، يخوض حزب الله حربه في سوريا بلا حاضنة حقيقية ولا بيئة يمكن الجزم بأنها صديقة له، خاصة وأنه حزب عقائدي ديني يرتكز على "المذهب الشيعي الاثني عشري"، لا بل بدرجة أخص على "ولاية الفقيه"؛ وهو ما يكاد لا يتيسر إلا أقل القليل منه في الديمغرافية السورية. كما أن لعبة التحالف مع الأقليات كما جرت في لبنان يصعب تطبيقها في سوريا لوجود أكثرية حاسمة في هذا الأخير، فضلًا عن أن الأقليات السورية ليست واثقة من قدرة أي تغيير في الجغرافيا والديمغرافيا على حساب الأكثرية من الصمود طويلًا فقد ينهار هذا التغيير تحت وطأة وقائع جديدة على الأرض، بل إن بعض تلك الأقليات ربما لا يرغب ابتداء بتعريف نفسه إلا وطنيًّا وليس مذهبيًّا أو عِرقيًّا.

4. أي تقدير بأن حزب الله سيكسب في النظام اللبناني أو في الإقليم من خلال الانخراط العسكري في الحرب السورية غير مأمون العواقب، فلبنان دولة هشَّة لم تتعافَ تمامًا من الحرب الأهلية ولا شيء يمنع من وقوعها في براثنها مرة أخرى بسبب سياسات الحزب أو بدفع من بعض الأطراف من أجل تغيير الواقع اللبناني أو لإشغال حزب الله بأرضه. كما أن الإقليم برمته غير مستقر ولا شيء يمنع انفجاره سواء مع إسرائيل أو على محاور طائفية أخرى وخاصة ما بين السُّنة والشيعة نتيجة تدهور الأوضاع، وبهذا إذا ما خرج الحزب من الحرب السورية قد تكون هناك حروب أخرى تنتظره وحينها لن يجني بلبنان ثمار ما دفعه في سوريا.

التحولات الأخلاقية:

إن أكبر خسارة سياسية وأخلاقية قد يُمنى بها حزب الله هو خسارته للشرعية الشعبية في العالم العربي والإسلامي كحركة "مقاومة"، وقد دفع في بعض المراحل دماء ليؤكد عليها، ومن ذلك أنه وقف إلى جانب الفلسطينيين ضد حركة أمل (الشيعية) في حرب المخيمات (1985–1988)، وتحت شعارات الوحدة الإسلامية ووحدة "الحركة الإسلامية" و"الشعوب الإسلامية"، ليؤكد أنه مقاومة تتجاوز الحدود المذهبية. فضلًا عن عبوره بنجاح للطوائف اللبنانية بعد أن أعاد صياغة خطابه الإعلامي والسياسي، ليتلاءم مع دوره كمقاوم ضد الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان، وتجنَّب الخوض في الفساد الداخلي أو في الصراعات الداخلية السياسية ليأتي تحرير الجنوب عام 2000 تحت عنوان وطني، وأن حزب الله الإسلامي الشيعي،

حرَّر الجنوب اللبناني بناء على معايير الشراكة الوطنية ولا أهداف ولا امتيازات خاصة له جرَّاء ذلك.
واستطاع الحزب الاستفادة بكفاءة من الإرث الذي صاغته المقاومة الفلسطينية في لبنان والمنطقة، ليؤكد أنه جزء من هذه السلسلة المقاوِمة لإسرائيل، وأن شرعيته تنبع من انتمائه لها والتزامه بها باعتبارها خيار الشعوب العربية والإسلامية جمعاء، وساعده على ذلك تموضع إيران في القضية الفلسطينية واختيار قيادتها آخر جمعة من رمضان لتكون يوم الوحدة الإسلامية ويوم القدس العالمي، وهي الاستراتيجية التي مكَّنت حزب الله من حيازة الشرعية التي يحتاجها ليكون جزءًا من ثقافة هذه المنطقة قبل جغرافيتها، وجزءًا من مقاومتها "للاحتلال الإسرائيلي" في المنطقة العربية.

ولكن مع الانخراط في الحرب السورية تغير جوهر هذه الشرعية، لتصبح المقاومة شأنًا طائفيًّا ولا يملك للحثِّ عليها إلا الخطاب المذهبي من قبيل شعار "لن تُسبى زينب مرتين" وما إلى ذلك مما يتصل بتصورات تاريخية قائمة على صراع مذهبي، ولتنقل النزاعات إلى داخل العالم الإسلامي والعربي بعد أن كانت للدفاع عنه.

إن هذا التحول الذي طرأ على المحور الذي ينتمي إليه حزب الله وتقوده إيران رغم إصراره على "عنوان المقاومة"، أغرقه في أعمال قتل جماعية وتهجير سكاني واسع على أساس مذهبي في سوريا والعراق، وهو إرث على الصعيد الأخلاقي سيلازم حزبَ الله على الدوام لاسيما أنه في بيئة عربية يغلب عليها "الطابع السُّني". والأنكى أن حزب الله على شراكة مباشرة بالهدف السياسي الذي يحظى بالأولوية من هذه العملية في سوريا بالتحديد؛ حيث يقوم المحور الإيراني–السوري وفق أحد الاحتمالات المرجوة، بإعادة هندسة للديمغرافية السورية ليربط بين "الدولة المفيدة" التي سيغلب عليها الطابع العلوي كما هو مفترض، بقرى وبلدات شيعية محصنة على الحدود اللبنانية، ما يتطلب تهجيرًا سكانيًّا ما لتجسير الفجوة ما بين الإقليمين الجغرافيين.

وقد أخذ يترتب على هذا التحول الإقليمي عمليًّا تحولٌ محلي ليس أقل خطورة، وبرضا من حزب الله أو باستسلام منه لمسار أطلقه ولا يملك إيقافه، ألا وهو إعادة تعريف الشيعة في لبنان بوصفهم "أقلية" كبقية الأقليات وليسوا جزءًا من أكثرية المنطقة "المسلمة"، وبالتالي الاكتفاء ببناء "شيعية سياسية"(17) غالبة أو نافذة في لبنان بما يمتِّعها تلقائيًّا بحق رعاية كل شيعة المنطقة، لاسيما أن المجتمع الدولي أرسى واقعيًّا –منذ نشأة الكيان اللبناني– في الحسابات الطائفية اللبنانية حقَّ "تخصيص الأقليات بامتيازات إقليمية" خوفًا من "طغيان الأكثرية". ووفق هذا الوصف، سيكسب حزب الله –من جهة– عموم "الجمهور الشيعي" لأنه الضامن لأمنهم في مواجهة "الأكثرية السنِّية" بالمنطقة بل وربما أيضًا الطوائف الأخرى من غير الأكثرية(18)، وسيستفيد من جهة أخرى من هذا التعريف الجديد لمصلحة دور "أقلوي" إقليمي يقوم به هو في المنطقة، (ويمكن مثلًا فهم زيارة الشخصيتين العراقيتين المهمتين: مقتدى الصدر ونور الدين المالكي للبنان في هذا السياق، بغضِّ النظر عن السياقات الأخرى، من أجل المصالح برعاية من نصر الله الذي يستطيع بهذا المنطق العناية بشيعة الإقليم لحفظ وجودهم(19))، وهو الدور الذي لعبته "المارونية السياسية" عبر "الكتائب" و"القوات اللبنانية" في مراحل متعددة تاريخيًّا، بداعي مسؤوليتها عن مسيحيي المشرق وباعتراف ضمني من الغرب.

وفي الختام:

إن ما حققه حزب الله من تدخله في الحرب السورية إلى جانب المحور الإيراني من انتصارات عسكرية جزئية قد تقابله هزائم أخرى فضلًا عن عدم قدرته على تحمل نزيف الخسائر بالأرواح، أمَّا على المستوى الاستراتيجي فقد دخل في حرب مع الأكثرية في المنطقة وبشعارات مذهبية ليخسر موقعه كإحدى "الحركات المقاومة"، فضلًا عن أن استمرار هيمنته على القرار اللبناني لا أُفقَ لها، ما يضعه في مواجهة دائمة مع بقية اللبنانيين محليًّا، ومع الأكثرية "السُّنية" في الإقليم، وهذا عبء ثقيل

ليتحمله.

مراجع:

(1) نظر مقابلة أمين عام حزب الله حسن نصر الله، تليفزيون المنار، برنامج بين قوسين، 24 أكتوبر/تشرين الأول 2011، نقلًا عن الرابط أدناه:
https://www.youtube.com/watch?v=iAKGyV6jtXQ
تاريخ الدخول: 14 يناير/كانون الثاني 2016.
(2) نفس المصدر السابق.

(3) حتى إن علاقة حزب الله ساءت مع حركة حماس على خلفية الموقف من سوريا على وجه التحديد، حيث رفضت الأخيرة تأييد الأسد وأعلنت عن تأييدها خيارات الشعوب، وإن كانت حريصة على عدم التدخل في الشؤون العربية الداخلية.

(4) انظر كلمة أمين عام حزب الله حسن نصر الله، حيث قال: "إن الثورة في البحرين سلمية" وتُواجَه "بالعنف"، والرئيس السوري "يُصدر عفويْن" عن الثوار فيُقابَل "بالعنف"، تليفزيون المنار، 24 يونيو/حزيران 2011، نقلًا عن الرابط أدناه:
https://www.youtube.com/watch?v=HmrxP5OHUmo
تاريخ الدخول: 14 يناير/كانون الثاني 2016.

(5) إن الحديث عن محاولة أميركا "ركوب الموجة" كان شائعًا في تلك الفترة وكان مبنيًّا على سوء ظن بها من قِبل خصومها كالإسلاميين، وعلى تقديرات من قِبل محلِّلين وإعلاميين نتيجة قراءة الموقف الأميركي. وللتدليل على هذا الأمر تكفي الإشارة إلى بعض المصادر التي ورد فيها هذا التحليل أو التحذير.
انظر مثلا: محمد كمال، الإخوان بين مرحلتين، موقع إخوان أون لاين، 1 مارس/آذار 2011.
وانظر: سميح صعب، الصراع الأميركي-الإيراني على الثورات، النهار اللبنانية، 5 مارس/آذار 2011.
يمكن الاطِّلاع على النصَّين نقلًا عن مركز الشرق العربي على الرابط أدناه:
http://www.asharqalarabi.org.uk/m-w/b-waha-1396.htm
وانظر: زين العابدين الركابي، أميركا: صناعة الحدث أم ركوب موجته؟، صحيفة الشرق الأوسط، 30 إبريل/نيسان 2011.
http://archive.aawsat.com/details.asp?section=15&article=619454&issueno=11840#.Vx8HPPnRiUk
وتعتمد القاعدة هذا التحليل أيضا، انظر على سبيل المثال مقالة "الثورات العربية وموسم الحصاد"، لجمال إبراهيم اشيتيوى، المشهور بكُنية: عطية الله الليبي. وكان حذَّر فيها من "الثورة المضادة"، ومن دعم واشنطن لها لتضييق الخناق على الثورات. قُتل عطية الله الليبي في أغسطس/آب 2011 بطائرة من غير طيار في وزيرستان، باكستان. يمكن الاطلاع على مقالته من خلال المنتديات المؤيدة للقاعدة على الانترنت.

(6) كلمة نصر الله في 24 يونيو/حزيران 2011، وأُشير إليها في مصدر سابق، انظر الرابط أدناه:
https://www.youtube.com/watch?v=HmrxP5OHUmo
تاريخ الدخول: 14 يناير/كانون الثاني 2016.

(7) كلمة حسن نصر الله 1 يونيو/حزيران 2011، في الذكرى 22 لرحيل الخميني، نقلًا عن الرابط أدناه:
https://www.youtube.com/watch?v=I88IxyQ-6GA
تاريخ الدخول: 14 يناير/كانون الثاني 2016.

(8) هناك كلمة لافتة لنصر الله ألقاها في "مؤتمر التجديد والاجتهاد الفكري عند الإمام الخامنئي" في 6 يونيو/حزيران 2011، تحدَّث فيها عن قدرة الخامنئي كمرجعية تحليلية وإدراكه لوضع المنطقة والوضع اللبناني أفضل من أهل المنطقة أنفسهم، وأن الثقة بالخامنئي هي التي أوصلت للنصر. وهي من المرات القليلة التي يصرّح فيه أمين عام حزب الله باتباعه لرؤية الخامنئي فيما يخصُّ "المقاومة" بجنوب لبنان رغم أنه، أي نصر الله وحزبه، كان يملك رؤية وتقديرًا مختلفًا. وذلك في سياق حديثه عن الثورات العربية والوضع السوري لتأكيد أن الولي الفقيه يرى ما لا يراه عموم الناس. انظر الرابط أدناه:
https://www.youtube.com/watch?v=Yxkmwu0t_Bc

(9) يُعتقد أن حزب الله شارك في عمليات عسكرية بمناطق عدَّة قبل الإعلان عن معركة القصير، منها في دمشق "بزعم الدفاع عن... قبر السيدة زينب... واشتركوا في هجمات النظام في محافظة درعا وفي الغوطة الشرقية في ريف دمشق" انظر: جيفري وايت، إعلان حزب الله للحرب في سوريا: التداعيات العسكرية، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، 29 مايو/أيار 2013.
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/hezbollahs-declaration-of-war-in-syria-military-implications

تاريخ الدخول 24 إبريل/نيسان 2014.

(10) في موقف نادر للدبلوماسية اللبنانية رفض وزير الخارجية اللبناني، جبران باسيل، إدانة "الاعتداءات" على مقار الدبلوماسية السعودية في إيران، ولمرَّتين: الأولى: في الاجتماع الوزاري العربي في القاهرة، والثانية: في اجتماع منظمة التعاون الإسلامي في جدَّة؛ ما تسبب بغضب سعودي لم تنجلِ تداعياته حتى اللحظة.

(11) العبارة للدكتور بشير نافع، انظر: علي الظفيري، مستقبل حزب الله، برنامج في العمق، قناة الجزيرة، 21 يونيو/حزيران 2013،
http://www.aljazeera.net/programs/in-depth/2013/6/21/%D9%85%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D9%84-%D8%AD%D8%B2%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87
تاريخ الدخول 12 إبريل/نيسان 2016.

(12) انظر: إبراهيم درويش، إدارة أوباما تخشى من انتقال المعركة للبنان وطلبت من الحُرِّ عدم ملاحقة مقاتلي حزب الله إلى أراضيه، القدس العربي، 23 مايو/أيار 2013.
http://www.alquds.co.uk/?p=47056
تاريخ الدخول 24 إبريل/نيسان 2014.

(13) انظر: شفيق شقير، تفجيرات لبنان: تداعيات للأزمة السورية أم بوادر حرب أمنية؟، 3 أكتوبر/ تشرين الأول 2013.
http://studies.aljazeera.net/ar/reports/2013/10/201310174929157964.html
تاريخ الدخول 24 إبريل/نيسان 2014.

(14) بحسب الكاتب في جريدة النهار اللبنانية، غسان الحجار، فإن فكرة المثالثة قديمة إيرانيًّا، محتجًّا بما جاء في صحيفة "كيهان" الإيرانية المقربة من آية الله السيد علي خامنئي في 8 نوفمبر/تشرين الثاني 2006: "في ظل النظام الاستراتيجي الجديد الذي برز في الشرق الأوسط، صار واجبًا أن يكون للشيعة في لبنان، وليس للشيعة اللبنانيين، أكبر حصة في المؤسسات الحكومية والرسمية، وعلينا أن نرى ونتابع كيف تتطور الأمور... وأول ما يجب تغييره هو اتفاق الطائف". وبحسب المقال نفسه: "إن الشيعة يمثِّلون اليوم 40 في المئة من السكان اللبنانيين ويشغلون 40 في المئة من الأرض اللبنانية، وهم المجموعة الأكثر وحدة وتوحُّدًا فيه، وصارت قوتهم العسكرية الأقوى في تلك المنطقة من العالم العربي، لذلك يجب أن يكون لهم التمثيل الأكبر والأوسع في الحكومة وفي البرلمان وفي كل المؤسسات اللبنانية". انظر: غسان حجار، المثالثة مطلب شيعي قديم، النهار اللبنانية، 10 يونيو/حزيران 2014،
http://newspaper.annahar.com/article/140282-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AB%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A9-%D9%85%D8%B7%D9%84%D8%A8-%D8%B4%D9%8A%D8%B9%D9%8A-%D9%82%D8%AF%D9%8A%D9%85
تاريخ الدخول 25 إبريل/نيسان 2015.

(15) انظر: علي آلفونه، "قتلى حزب الله في الحرب السورية"، معهد واشنطن، 22 فبراير/شباط 2016.
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/hezbollah-fatalities-in-the-syrian-war
وانظر الصفحة الأولى من جريدة السفير (29 يناير/تشرين الثاني 2016) التي أوردت مقالة بين يدي كلمة كان سيلقيها نصر الله على أنصاره حينها، واعترفت بأن حزب الله "قدَّم نحو ألف شهيد وآلاف الجرحى والمعوَّقين في معركة، يجزم الحزب بأنها ستُشكِّل حجر زاوية إعادة تشكيل خريطة التوازنات في المنطقة".
http://mobile.assafir.com/Article/470862/ref=Hyperlink
تاريخ الدخول 24 إبريل/نيسان 2016.

(16) انظر: وفيق قانصوه، حزب الله: حدود القتال في سوريا، بانوراما الشرق الأوسط، 29 مايو/أيار 2013،
http://www.mepanorama.net/293856/%D8%AD%D8%B2%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D8%AD%D8%AF%D9%88%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%AA%D8%A7%D9%84-%D9%81%D8%A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7
تاريخ الدخول 25 إبريل/نيسان 2016.

(17) انظر عن "الشيعية السياسية" في سياق حرب حزب الله في سوريا: شفيق شقير، حدود لبنان تحت المطرقة السورية: تداعيات ومخاطر، 16 أكتوبر/تشرين الأول 2014،
http://studies.aljazeera.net/ar/reports/2014/10/2014101684155185597.html
تاريخ الدخول 24 إبريل/نيسان 2016.

(18) أجرت جمعية "هيا بنا" وهي معارِضة لحزب الله، استطلاعًا للرأي داخل الطائفة الشيعية في لبنان، وجاء في بعض نتائجه أن 78.7% من المستطلَعين الشيعة يؤيدون تدخل "حزب الله" في سوريا، أمَّا تبرير مُعدّي الاستطلاع لهذه النسبة فهو "أن الشيعة خائفون". انظر صحيفة النهار، 78.7% في المئة من الطائفة الشيعية مع التدخل في سوريا لكنهم خائفون، 14 يوليو/تموز 2015،

http://newspaper.annahar.com/article/251945-%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B7%D9%84%D8%A7%D8%B9-%D8%B1%D8%A3%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A7%D8%A6%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A%D8%B9%D9%8A%D8%A9-%D8%B9%D9%86-%D8%A3%D8%AD%D9%88%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84-%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%A7%D9%86-787-%D9%81%D8%A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A6%D8%A9-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%AE%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7

تاريخ الدخول 24 إبريل/نيسان 2016.

(19) انظر القبس الكويتية، المالكي يلتحق بالصدر إلى بيروت للتصالح عند نصر الله، 14 إبريل/نيسان 2016، http://alqabas.com/15202

مركز الجزيرة للدراسات

المصادر: